# الفصل الرابع
# الداعية المهندس محمد توفيق بن أحمد سعد
# رجل بلّغ الإسلام لآلاف من مثقفي العالم
# وأسلم على يده ( ٤٠٠٠ ) أربعة آلاف (*)

عرفته منذ نحو ثلاثة عشر عامًا، ومنذ لقائى الأول به عام ١٩٧٧م وجدتني مقبلاً عليه معجبًا به، ورأيتنى مدفوعًا إليه بقوة روحية تزيدنى منه اقترابًا يومًا بعد يوم ولم لا؟ وأنت فى صحبة هذا الرجل ترى فيه أخلاق الإسلام فى سماحتها وشموخها وطموحها وأدبها الرفيع وعطائها الإنسانى النبيل، وكل أحبابه ومريديه وتلاميذه قد ارتبطوا به، وأقبلوا عليه فى شوق وتقدير على غير منفعة مادية أو مصلحة فانية، وإنما اللقاء معه لله وفى سبيل الله «وما كان لله دام واتصل وما كان لغير الله انقطع وانفصل».

● مع هذا الرجل المبارك الذى شغله الله منذ نعومة أظفاره بفعل الخير والدعوة إلى مكارم الأخلاق وتبليغ الإسلام إلى الأجانب، وعلى مدى نحو سبعين عامًا من عمره المديد ( شفاه الله ) (**) وقد جاوز العام الحادى والتسعين ظل الرجل مرابطًا فى ثغور الإسلام يدعو إليه شريعة وعقيدة ونموذجا للحياة البشرية لا تتحقق إنسانية الإنسان فى أبهى وأكمل صورها إلا فى ظل شريعته السمحة ونظامه الربانى، إنه رجل سخرته العناية الإلهية فى نصره الحق ونشر الدين الحق الذى تعهد الله بحفظه وتأييده قال تعالى: ﴿ **هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ** ﴾ [التوبة: ٣٣]

وقال تعالى: ﴿ **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** ﴾ [الحجر: ٩]، وشاءت إرادة الله تعالى أيضًا أن يجند من عباده من يقوم على أمر هذا الدين الحق

---

(*) جريدة ( أخبار الخليج ) في [ ١٢ من رمضان ١٤١١ هـ - ٢٨ - ٣ - ١٩٩١م ].

(**) انتقل داعيتنا المبارك إلى رحمة الله في دار البقاء فى شوال ١٤١١ هـ - مايو ١٩٩١م رحمه الله رحمة واسعة.

وحراسته فى مختلف الأعصر والأزمان يجدد لهذا الدين شبابه، ويذود عنه كيد الأعداء، وينفى عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين، ومن هذا النفر المرابطين على ثغور الإسلام سماحة الداعية الإسلامى المبارك المهندس محمد توفيق بن أحمد سعد مؤسس ( دار تبليغ الإسلام ) ومحرر مجلة « البريد الإسلامى » الغراء التى توزع حسبة لوجه الله تعالى فى مصر والبلاد العربية والإسلامية والمهاجر بطريق المراسلة والذى هدى الله على يديه ( ٤٠٠٠ ) أربعة آلاف من مثقفى العالم وبخاصة فى الغرب وأمريكا فضلاً عن عشرات الآلاف الذين صححوا فكرتهم عن الإسلام فصاروا أصدقاء له بعدما كانوا حربا عليه، وآخرين ممن صاروا محايدين فى موقفهم من الإسلام بعدما كانوا متحاملين عليه، محاربين له، فى رحلة طيبة مباركة ممتدة من عام ١٩٢٩م إلى الآن – بارك الله فى عمره ورفع عنه وأتم عليه نعمة العافية والشفاء التام [١] إنه على كل شئ قدير.

هذا الرجل الموهوب الذى هو رجل عبقرى فى منطوق المعاصرين أو هو رجل نسيج وحده فى لغة الآباء والأجداد، هو رجل فرد استطاع بتأييد الله تعالى أن يثمر فى الدعوة إلى الإسلام بالعقل والحسنى ونور القرآن ما لا تقوى عليه مؤسسات كبيرة يُجندُ لها الموظفون ويحشد فيها العاملون، ومن ثم ينطبق عليه بحق « الرجل الأمة » كما فى قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ إبراهِيمَ كَانَ أُمَّةً** ﴾ أى أمة من الخيرات فى تمثيله لدعوة التوحيد وفى كثير ما يصدر عنه من الفضل والخير، ورضى الله عن شاعر الإسلام الفيلسوف محمد إقبال إذ يقول: « إذا أحسن المؤمن تربية شخصيته، وعرف قيمة نفسه، لم يقع فى العالم إلا ما يرضاه ويحبه »، وفى مجال الاتصال بالأجانب أعدّ الداعية الكريم رسالة بحجم كف اليد الواحدة أسماها « الإسلام دين الجميع » قدم على صفحاتها المعدودة فكرة مركزة جداً عن

---

( ١ ) نُشر هذا الجزء من الدراسة بصحيفة « أخبار الخليج » فى الثانى عشر من رمضان المبارك سنة ١٤١١ هـ قبل وفاة المغفور له الداعية المبارك المهندس محمد توفيق بنحو شهر ونصف الشهر، رحمه الله تعالى.

الإسلام ورسالته فى أسلوب سهل يفهمه القارئ فى يسر وترجمها إلى أغلب اللغات العالمية الحية المنتشرة مثل الإنكليزية والألمانية والفرنسية والايطالية واليونانية واليابانية حتى لغة الإسبرانتو أو اللغة الإسبرنتية، وبواسطة الاتصال المباشر إبان إقامته فى أوربا فى بعثته الدراسية فى سويسرا لدراسة التوربينات البحرية فى المدة من ( ١٩٢٩م إلى ١٩٣١م ) أو بالمراسلة خلال فترة الدراسة تلك وما تلاها فى مقر إقامته بالقاهرة ثم استقراره بالإسكندرية نهاية مدة خدمته وبعدها أى منذ بداية الستينات وإلى الآن وإلى ما شاء الله تعالى . وبهذا الأسلوب كان لهذا الرجلا ذيّاك العطاء اليانع المبارك فى حقل التعريف بالإسلام بين الأجانب وتبليغ دعوته وتربية مريديه وأحبابه بواسطة مجلته القيمة ( البريد الإسلامى ) التى يرسلها إليهم بالبريد تحمل من زاد القرآن والسنة والحكمة المربية وحكيم الشعر ودوحة الأدب ما يجعلهم على طريق الخير والحق والتوفيق والتفوق .

● والرجل بالرغم ما قدم للإسلام وضحّى فى سبيل دعوته وتبليغه يرى أنه لم يقم إلا بما يُوجبه عليه انتماؤه لهذا الدين العظيم وأنه جهد المقل وأنه ليس بالأمر الصعب أو المعجز ودائما يقول : «إن الإسلام يحتاج إلى القلوب قبل الجيوب» إشارة إلى ضرورة توفر النية المخلصة ولذا رأيناه عزوفا عن الشهرة والأضواء وكم تلقى من العروض الإعلامية للظهور على الشاشة الصغيرة أو الحوارات الإذاعية أو الصحف إلا ما ندر جاعلا شعاره فى ذلك «اعمل ليراك الله وحده» .

* * *

# قصة تأسيس «دار تبليغ الإسلام»

أما عن قصة إنشاء دار «تبليغ الإسلام» والهدف منها ورسالتها قال لى ذات مرة: «فى الواقع ليس [1] لى نشاط يذكر ويستحق هذا الاهتمام من الأحباب لأنه من الواجب على كل مسلم أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ودار تبليغ الإسلام سبقها تأسيس جماعة (الوعظ الإسلامية) التى أصبحت الآن «جماعة الوعظ والدعوة الإسلامية فى مصر» ولم يكن هناك جمعيات تسجل فى الشئون الاجتماعية، كما هو الآن من الناحية الرسمية، ولما قامت فكرتها فى رأسى شرعت فى إصدار مجلة اسمها «التقوى» وفعلاً أصدرت هذه المجلة وكنت أطبعها فى صفحة واحدة وكتبت عليها [جريدة التقوى، تصدرها جماعة الوعظ الإسلامى] وفضلت ألا أكتب عليها اسمى نظراً لأنى لم أرد ذلك وإن كنت قد عُرفت بعد ذلك وانتشر اسمى على غير رغبة منى وجعلت عنوانها بشارع الصراط المستقيم - حارة الهدى - نمرة (١) بدار السلام (ولم يكن هذا عنوانا حقيقيا بالطبع) وطبعت أول عدد منها فى مطبعة كرارة عند مسجد سيدنا الحسين وطبعت منها حوالى ألف (١٠٠٠) نسخة ووزعتها فانتشرت بحمد الله انتشارا واسعا وأيضا كنت أكتب عليها كما أكتب على مجلة «البريد الإسلامى» الآن «أقرأها وأعطها لغيرك مشكورا» وبعد ذلك سلكت طريق الإجراءات الرسمية المطلوبة، لإصدار صحيفة بصورة دورية وحددت وجهتها وموضوعها: أدبية إسلامية .. إلخ.

وواصلتُ إصدار (التقوى) حتى عام ١٩٣٥ م ورشحت لبعثة هندسية إلى سويسرا عام ١٩٢٩م وهناك شعرت بحاجة الأوروبيين للحصول على فكرة صحيحة وموضوعية عن الإسلام ومن ثمَّ بدأ العمل لتبليغ الإسلام تحت اسم (دار

---

(١) «رجل من أمة التوحيد» للكاتب - الطبعة الأولى سنة ١٤١١ هـ، سنة ١٩٩١م - دار الصحوة بالقاهرة ص ٢٢، ٢٣، ٢٤، ٢٥.

تبليغ الإسلام ) وهو اسم معنوى كنت أعمل من ورائه ولا زلت، وكانت كل الرسائل والإعلانات التى أبعث بها إلى الصحف الأوروبية أو أنشرها من خلالها باسم محمد توفيق محرر مجلة ( التقوى ) فى القاهرة، وكنت أتسلم كثيرا من الرسائل التى تصل إلى المنزل الذى كنت أسكن فيه وبالطبع كنت أرد عليها وفى كل مكان كنت أنزل فيه أجد كثيرا من الأسئلة المتعلقة بالإسلام والمسلمين وكانت صورة الإسلام مشوهة من أعداء الإسلام والمستشرقين ومن حَسَني النية الذين يصدقون كل ما يقرأون فيعتقدون أن الإسلام بهذه الصورة، وذات مرة قام أحد المبشرين واسمه روبلى أو الدكتور روبلى مفتش التبشير فى أسوان فى ذلك الوقت وكان بصدد جمع تبرعات للمساعدة فى خدمات المستشفى التبشيرى فى مصر، ونشر فى الصحف أنه سيلقى محاضرة عن مصر وفلسطين وحدد موعدها، وحث الجمهور لحضورها، وكان مكان المحاضرة فى أحد المعابد الأوربية وتصورت وقتها أنه سيتعرض فى محاضرته للإسلام وفعلا تناول فى حديثه أشياء كثيرة تمس الإسلام وتحدث فى مواضيع كثيرة عن العرب وفلسطين ومصر وذكر مظاهر من الفوضى والجهل المنتشر – والذى هو فى الحقيقة – بسبب البعد عن الإسلام حيث لم تعرف الفوضى ولم يعرف الجهل فى حياة المسلمين فى العصور المتأخرة إلا بتغريبهم عن دينهم وابتعادهم عن نهج قرآنهم، وكانتْ تلك الحملة مرتبة ومخططا لها من أعداء الإسلام، وقد حمل الرجل صوراً معه إلى المحاضرة تسئ إلى الإسلام وإلى مصر أبلغ إساءة ومن الصور التى عرضها بالفانوس السحرى صورة جمل وسيدة تركب خلف الرجل فى المكان المنحدر من مؤخرة ظهر الجمل تكاد تسقط ليوحى بهذا عن سوء معاملة الرجل المسلم للمرأة مما يوحى بسوء معاملة الإسلام للمرأة، ثم قال : « تتخيلون . . كيف تتزوج المرأة هناك؟! – القول للدكتور روبلى – المرأة عند المسلمين تباع !! فهناك المرأة التى يشتريها الزوج عند الزواج بعشرة جنيهات وأخرى بعشرين وأخرى بخمسين ( إشارة إلى المهر فى مصر فى الثلاثينات من القرن الحالى ) كأنك تشترى عنزاً أو جاموسة يمكنك أن تشترى المرأة، ويمكنك أن تتزوج ممن تعجبك بأى عدد تشاء

ولم يحدد « روبلى » عدد النساء بأربع كما هو معروف!!، وبعد هذا عرض « روبلى » صورة أخرى لرجلين يمشيان يحمل أحدهما مغزله يغزل به وأمامه زوجه تحمل حملاً ثقيلا من القمح قدره روبلى – حسب الصورة – بأنه أربع كيلات وقال للمشاهدين الذين يشاهدون الصورة: هل تعرفون كم تحمل هذه المرأة إنها تحمل ما يساوى أربع كيلات من القمح وبالرغم من ذلك يقول زوجها لصاحبه: سأطلقها ويسبها بالرغم من تفانيها وتعبها فى خدمته، وبعد ذلك قال لهم: الآن سأعرض عليكم صورة لأكبر مستشفى رمدى فى مصر بالقاهرة وجاء بالصورة لضريح السيدة نفيسة – رضى الله عنها – وتظهر فيه حلقتان فى جوانب الضريح وجاء بأناس تظهر عيونهم بصورة قبيحة جداً وقد وضعت عليها طبقات من الطين بشكل قبيح تتقزز منه العين وقال: هذه الطبيبة – السيدة نفيسة – رضى الله عنها – من نسل النبى محمد ﷺ، أرسلت إلى مصر لتعمى المصريين !!! وقال لهم: هل تعرفون كم عدد العميان فى مصر؟ وأجاب: إنهم يمثلون نسبة ( ٣٠٪ ) !!

وعندما انتهت المحاضرة قدم الحاضرون التبرعات لهذا المبشر .

ورغبت فى الرد على الدكتور روبلى غير أن لغتى الألمانية لم تكن تسعفنى فى هذه المهمة، فقلت كلمات قصيرة فى نهاية المحاضرة واستمع إليها الحاضرون ومؤداها إن لى تعليقا قصيرا ستقرأونه فى الصحف وأثناء خروجى اعتذرت له عن المساهمة فى تقديم التبرعات، وعندما ذهبت إلى البيت قالت لى المرأة التى كنت أسكن عندها غاضبة وقد حضرت المحاضرة: هل دينكم بهذا الشكل؟ وهل الحياة فى بلادكم على هذه الصورة القبيحة؟

غير أنى لم أنم تلك الليلة، وجئت بجميع القواميس فى محاولة منى لكتابة رد يصحح ما أثاره مفتش التبشير فى محاضراته من أكاذيب ومغالطات، وفى الصباح صححت لى هذه السيدة لغة الرد المكتوب بلغة ركيكة، وبعثت بهذا الرد إلى الصحف وقد نسخت منه ثمانى نسخ ونشرت الصحف

الرد وذكرت أنه لمحمد توفيق محرر مجلة «التقوى» بالقاهرة، ومن هنا كانت الحاجة ماسة لتأسيس دار تبليغ الإسلام، لتقوم بتقديم مفهوم الإسلام الصحيح للأجانب بلغاتهم ولتساعد الأجانب الراغبين فى معرفة الحقيقة فيما يتصل بالإسلام بلغاتهم الحية فى مواجهة حملات التضليل، والأكاذيب والتعصب .. (انتهى).

● أما نماذج الأجانب الذين أسلموا على يد المهندس محمد توفيق فكثيرة متعددة وكل أنموذج منها يمثل كتابا مستقلا ونمطا فريداً.

* * *

# أوروبيون أسلموا على يد هذا الرجل

جهاد مشرف للداعية الإسلامى المبارك محمد توفيق بن أحمد سعد – رحمه الله [1] – الذى بلغ دعوة الإسلام لآلاف من مثقفى العالم وخاصة العالم الأوروبى والأمريكى فهدى الله على يده أربعة آلاف من الأجانب بأسلوب التواصل الإعلامى والمقابلة الشخصية فى رحلة مع تبليغ الإسلام امتدت نحو ستين عاما هذا فضلا عن آلاف ممن غيروا فكرتهم عن الإسلام فصاروا لدعوته أصدقاء بعدما كانوا لها كارهين وعليها متحاملين، وقد كان لأسلوبه الحكيم فى التواصل مع الناس وسماحة أخلاقه وبشاشة وجهه أكبر الأثر فى نجاح دعوته وتأثيره الساحر فى أحبابه وأصدقائه ومريديه وخصومه على حد سواء، الأمر الذى استلزم منه معرفة واسعة باللغات الأوروبية وقد يسر الله له ذلك بإقامته فى أوروبا ثلاث سنوات ( ١٩٢٩ – ١٩٣١ ) فضلاً عن أصدقائه المقربين ومريديه الذين يجيدون لغات شتى ووضعوا خبرتهم ومهارتهم فى اللغات الأجنبية فى خدمة رسالة أستاذنا فى حقل تبليغ الإسلام للأجانب لتصحيح أفكارهم المشوهة عن الإسلام بلغاتهم، وكان برسالته الموجزة ( الإسلام دين الجميع ) التى بحجم كف اليد الواحدة والتى تشتمل على فكرة مركزة تعرض فى إيجاز رسالة الإسلام وعلاقته بما سبقه من الرسالات والشرائع فعل السحر فى كثير من المثقفين الأوروبيين وكان يشجع أصدقاءه من الأجانب أن يرسلوا لدار تبليغ الإسلام عناوين أصدقائهم ليطرق أبوابهم بدعوة الإسلام دين الله الخاتم وشرعه الخاتم لدنيا الناس وبهذا الأسلوب تبادل الرسائل مع الأوروبيين ومنهم من كان يطلب لقاءه وزيارته بمصر. ومنهم من تسمى باسمه بعدما هداه الله إلى الإسلام، وتفاوت

---

( ١ ) كان داعيتنا المبارك قد فاز بلقاء ربّه راضيًا مرضيًا حين نُشر هذا الجزء من الدراسة المتعلقة به رحمه الله، وقد نشر هذا الجزء فى الخامس من رمضان المبارك سنة ١٤١٢ هـ مارس سنة ١٩٩٢م بصحيفة « أخبار الخليج » فيما كانت وفاته ليلة الجمعة : ٢٦ من شوال ١٤١١ هـ – ١٠ من مايو ١٩٩١م.

الوقت والجهد اللذين كان يبذلهما مع الرجل الأوروبى الذى فتن بحضارة الغرب وعبادة العلم من دون الله وغرته قوته وتقدمه التقنى. فضلاً عن فكرته الخاطئة عن الإسلام والمسلمين، فمن الأوروبيين من كان يقتنع بعد مراسلات قليلة فى بضع شهور وفى سنة على الأكثر ومنهم من ظل فى جداله ومحاوراته مع مؤسس دار تبليغ الإسلام سبع عشرة سنة، وكان - رحمه الله ورضى عنه - يأسى ويحزن لأحوال المسلمين المعاصرة ويرى فى تخلفهم وسوء أحوالهم وما انحدرت إليه أخلاقهم وتشرذمهم أكبر عقبة فى طريق انتشار دعوة الإسلام، وكان - رحمه الله - يقول لى كثيرا لو كان المسلمون على مستوى إسلامهم حقا ما بقى على ظهر الأرض كافر واحد، وكان يعكف الساعات الطوال يبحث فيما يَرُدُّ به على الشبهات التى يطرحها الباحثون عن الحقيقة ويوضح لهم ما غمض عليهم من رسالة الإسلام ويكتب الرسائل مترجمة إلى كل فرد بلغته مما يستلزم جهدا لا تقوم به إلا مؤسسة ولم يكن غريبا أن يكتب عنه الأستاذ عبد القادر الإدريسى المغربى مقالاً تحت عنوان (الرجل المؤسسة) فى مجلة (المسلمون) الدولية فى الثمانينات، ومن طريف ما يحكى أن المدرس سأل ابنه أحمد (طالب فى كلية الهندسة بمصر حاليا) وكان صبيا فى الصفوف الأولى من المرحلة الابتدائية عن وظيفة أبيه فرد الطفل فى براءة (بيكتب جوابات) وكان أستاذنا يحكيها ضاحكًا - رحمه الله -.

ولم يكن جهد الشيخ المبارك يتوقف عند إعلان المهتدى من الأوروبيين اعتناقه الإسلام وبرآءته من كل دين يخالف دين الإسلام عن اقتناع وحرية كاملة وإنما كان يواصل التعرف على أخباره والكتابة إليه ومساعدته فى حل مشاكله، كتب [1] إليه مسلم ألمانى كان مجنداً بالجيش أنه ارتكب مخالفة كانت سببًا فى دخوله السجن وإعطائه طعامًا لا يأكله المسلم مثل لحم الخنزير وشراب البيرة وسأل المهندس محمد توفيق الاتصال بإدارة السجن لتغيير طعامه، فسارع الداعية

(١) انظر كتابنا «رجل من أمة التوحيد» ص ١١٦، ص ١١٧ دار الصحوة بالقاهرة ١٩٩١ م

المبارك – رحمه الله – بكتابة رسالة رقيقة لضابط السجن الحربى المسئول يخبره بأن البشرية تحترم الأديان ويلفته إلى وجود الجندى المسلم من أحبابه يحرم عليه الإسلام أن يأكل كذا وكذا من المأكولات ورجاه أن يقدم له المأكولات الإسلامية مثل السمك والبيض والماء العذب الزلال فاستجاب الضابط الألمانى لهذا الطلب فوراً وتم تغيير الأطعمة للأخ المسلم والطريف أن الضابط كتب إلى المهندس توفيق لإخباره بتلبيته طلبه، كما طلب – الضابط – عددا من المطبوعات الإسلامية التى فى حوزة دار تبليغ الإسلام وكانت سبباً فى إسلام الضابط وإشهار عقيدة الإسلام السمحة.

* * *